السنة الأولى ماستر
التخصص: تاريخ الجزائر الحديث 1519-1830
المقياس: التحولات الكبرى في غربي البحر المتوسط

2- سقوط القسطنطينة 1453 وآثاره على مستقبل العلاقات الدولية

أ.د. عبد القادر فكاير

2- على صعيد الغرب المسيحي:

أما الآثار الناجمة عن فتح العثمانيين على صعيد الغرب المسحي فيمكن رصدها عبر محاور عدة تتجلى في صدى سقوط القسطنطينية على البابوية الكاثوليكية والغرب الأوروبي، وعلى النشاط التجاري للأساطيل الأوروبية، وعلى موقف المسيحية الأورثوذكسية.

دعا البابا نيقولا الخامس في ايلول (سبتمبر) 1453 إلى ضرورة قيام حملة صليبية جديدة لاستعادة مدينة القسطنطينية من قبضة الأتراك العثمانيين، ونظراً لعدم تحمس الدول الأوروبية لهذه الفكرة، والخوف من استثارة عداء العثمانيين من جديد، فلم تخرج هذه الدعوة إلى التنفيد بشكل جدي.

ثم تولى البابا كالسنوس الثالث زمام الإدارة البابوية، وأعاد فرض ضريبة العشر من أجل تمويل أسطول بحرى لاستعادة مدينة القسطنطينية. لكن ذلك الأسطول لم ينجح سوى في الحصول على بعض الجزر في بحر إيجه التي سرعان ما استردها العثمانيون.

واهتزت أوروبا المسيحية بعد سقوط القسطنطينية في أيدى العثمانيين، لأنها ظلت لأكثر من إحدى عشر قرناً تعتبرها الدرع الواقية، أو الحصن الشرقي المنيع الذي قام بحماية القارة الأوروبية من أخطار الغزاة الأسيويين في العصور الوسطى فضلا عن كونها حامية المسيحية الأوروبية الأرثوذكسية.

بعد نجاح العسكرية العثمانية في اجتياح القسطنطينية الحصينة 1453، بدأت الجيوش الأوروبية تدرك التكتيكات الجديدة في فن الحصار، ما أدى بها إلى دراسة فنون الحرب العثمانية، وكيفية محاصرة واقتحام المدن، وأدى إعجابهم بالجنود الانكشارية إلى محاولة تكوين فرق عسكرية مشابهة. كما وجهت الجيوش الأوربية أيضا اهتمامها نحة ضرورة الاستفادة من الدرس العثماني وتطوير المدافع لدورها الحاسم في الحروب.

اثر سقوط القسطنطينية في الفكر الغربي:

لا يمكننا أن نغفل الأثر الإيجابي الذي أحدثه سقوط القسطنطينية في الفكر الغربي في نهايات العصور الوسطى وبدايات العصر الحديث لأن التهديد المستمر من قبل العثمانيين

للقسطنطينية، ثم النجاح في اقتحامها في النهاية، دفع بالكثير من رجال الفكر والعلم والثقافة في جامعة القسطنطينية إلى الهرب باتجاه ايطاليا.

وحمل هؤلاء الأدباء والعلماء والفلاسفة معهم ذخائر الكتب، ومفاتيح العلم اليوناني الأمر الذي ساهم في إثراء الفكر الغربي، وزاد من نزعة التنوير فيه، وساعد في إعادة ربطه بروافد الحضارة اليونانية القديمة. وأدى ذلك في النهاية لأن تتبوأ ايطاليا مكانتها كوريثة للثقافة البيزنطية والفكر اليوناني، وكذلك إلى بزوغ فجر النهضة الأوروبية الحديثة.

الآثار الاقتصادية:

أما عن الآثار الاقتصادية العاشرة للفتح العثماني للقسطنطينية في النشاط الاقتصادي والتنافس التجاري، فقد سعت الجمهوريات التجارية الإيطالية إلى كسب ود السلطان العثماني، والحصول على امتيازات تجارية في العاصمة العثمانية الجديدة.

وبعيد الفتح مباشرة، نجح تجار مدينة جنوا في الحصول على القافية تجارية مهمة من السلطان محمد الفاتح في حزيران (يونيو) 1453 منحهم فيها امتيازاتهم السابقة في غلاطه . كما نجحت البندقية في نيسان (أبريل) 1454 في الحصول على اتفاقية مشابهة من السلطان الفاتح، وأدركت جمهورية فلورنسا أنه لابد لها من الحصول على موطئ قدم في العاصمة العثمانية الجديدة، فتحينت الفرصة لإقامة علاقات تجارية قوية مع العثمانيين وأرسلت اسطولاً تجارياً إلى القسطنطينية، كما استقبلت سفارة عثمانية بهدف إقامة علاقات ودية.

أثر فتح القسطنطينية على الملاحة في البحر المتوسط:

وأدى سقوط القسطنطينية في قبضة الأتراك العثمانيين إلى زيادة الأساطيل البحرية العثمانية في مياه البحر المتوسط الأمر الذي أثار خشية دول غرب أوروبا، بخاصة البرتغال وإسبانيا على سفنها وتجارتها. وهو ما دفعها إلى محاولة البحث بشكل جدي عن طرق بحرية وملاحية جديدة، دون المرور بالمياه التي تخضع للسيادة الإسلامية . وبدأت أنذاك حركة الكشوف الجغرافية الأوروبية عبر المرور خلف أفريقيا الغربية والجنوبية.

انفصال كنيسة القسطنطينية على كنيسة روما:

كما هدف السلطان الفاتح إلى استقرار السكان البيزنطيين في المدينة، ووافق على أن يظل السكان تحت رعاية مذهبهم الأرثوذكسي، فأمر بالإفراج عن البطريرك البيزنطي لكنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية وأعاد تنصيبه تحت اسم جينياديوس Ginnadius في عام 1454.

ولا شك في أن ما قام به محمد الفاتح، قد أكد تكريس مبدأ الانفصال التام بين كنيسة القسطنطينية، وكنيسة روما إلى الأبد، بل أنه جعل السكان الأرثوذكس ينظرون إليه باعتباره

حامي الأرثوذكسية الشرقية، بعد أن تمتعوا بحرية العبادة وفق مذهبهم ودون خوف من هاجس الاتحاد الكنسي. وفي ما بعد ألت الأرثوذكسية إلى كنيسة موسكو في روسيا، حيث رفضت الكنيسة الروسية فكرة وحدة الكنائس وقرارات مجمع فلورنسا 1439 .

رويداً رويداً بدأ السكان الأرثوذكس البيزنطيون في التحول نحو الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا المسيحية وانتقل الثقل من اسطنبول العثمانية إلى العاصمة الروسية موسكو.